

الثقافة العراقية المعاصرة حضور العناصر والبُنى وغياب النُظم والوظائف

المبحث الأول: مقدمة في المكونات الثقافية (العنصر، البنية، النظام، الوظيفة)

إذا كانت الثقافة هي ما يتبقى بعد زوال كل شيء، فإن علم الثقافة هو العلم الذي يدرس تلك الثقافة وهي حيةٌ وهو علم مازال في أطواره الأولى لكنه علم نوعي يعتني بالفحص العلمي للثقافة. وكان عالم الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكي لِسلي وايت (١٩٠٠-١٩٧٥) قد اقترح اسم هذا العلم على نظرياته العلمية الخاصة بالثقافة. علم الثقافة هو الدراسة العلمية المختصة بالظاهرة الثقافية يعمل على وصفها وتحليلها ودراسة أنواعها وتفرعاتها وعناصرها ووظائفها ومنظوماتها التحتية التكنولوجية والاجتماعية والأديولوجية والسلوكية. ويمكننا القول إن أية ثقافة تتكون من أربعة مكونات أساسية هي: العناصر، البنى، النُظم، الوظائف.

١. العناصر الثقافية

العناصر المكونة لأي ثقافة تتكون من عناصر مادية وعناصر غير مادية (معنوية)، والعناصر المادية هي ما ينتجه الإنسان من محسوسات ماثلة للعيان كالمباني والآلات والملابس ووسائل المواصلات والمقتنيات المادية الخاصة والعامة. أما العناصر غير المادية فهي القيم المعنوية والأخلاقية والروحية والجمالية والاجتماعية والنفسية وتتضمن العادات والتقاليد واللغة والفنون والآداب وقواعد السلوك

خزعل الماجدي*

وغيرها.

وتكاد تكون العناصر ثابتة المفردات في كل ثقافة أو حضارة لكنها مختلفة الهيئة والتفاصيل والشكل والمضمون في الثقافات المختلفة والمتنوعة للشعوب عبر التاريخ.

وتصنف العناصر الثقافية في أي مجتمع إلى ثلاثة أصناف هي:

١. العناصر الثقافية العامة: هي العناصر الثقافية المشتركة والتي تكون القاسم المشترك لكل أفراد المجتمع مثل الدين ومصطلحات اللغة والعادات والتقاليد والأفكار وأنماط السلوك والزي والتحية والقيم والعلوم، وكذلك المنتجات الصناعية والمادية الشائع استعمالها في المجتمع.

٢. العناصر الثقافية الخاصة: وهي العناصر الثقافية التي تخص فئة اجتماعية أو قومية أو دينية أو طبقية أو مهنية لا يشارك فيها سوى أفراد من فئة متميزة معينة.

٣. العناصر الثقافية المتغيرة: وهي العناصر الثقافية الجديدة التي يمارسها عدد محدود من المجتمع

والتي تكون عرضة

للتبدل والتغير والاهتزاز كالألوان الثقافية الجديدة مثل الموضوعات والتيارات الثقافية والسياسة وقد تزول إذا لم يقبلها المجتمع أو قد تتقل

العناصر الثقافية العامة أو الخاصة بحسب أهميتها

في تحقيق وظائف نوعية للمجتمع.

إن العناصر المشكلة للبنية محكومة دائماً بقوانين صارمة ترسخ نظام هذه العناصر، وتضفي على هذا النظام خصائص كلية. والبنية لا يمكن التعرف إليها إلا من خلال العلاقات التي تحكم عناصرها ذاتها، وليس من خلال هذه العناصر منفصلة. وهذا ما يؤكد ضبط البنية استناداً إلى حركتها الذاتية وإلى تحولاتها. فالتحولات لا توجد أبداً إلا في عناصر تنتمي للبنية ذاتها، وتخضع لقوانينها وتحافظ عليها، ولا تعود إلى ما هو خارج حدودها. وبهذا المعنى نجد أن البنية تغلق على ذاتها^(١).

٢. البنى الثقافية

البنية نسق من العلاقات الباطنة (المدركة وفقاً لمبدأ الأولية المطلقة لكل على الأجزاء) لها قوانينها الخاصة المحايثة، من حيث هي نسق يتصف بالوحدة الداخلية والانتظام الذاتي، على نحو يفضي فيه أي تغير في العلاقات إلى تغير في النسق نفسه، وعلى نحو ينطوي معه المجموع الكلي للعلاقات على دلالة يغدو معها النسق دالاً على

معنى. ويتضمن هذا التعريف مجموعة من المسلمات، أولها: أن البنية تصور عقلي أقرب إلى التجريد منه إلى التعيين (فالبنية هي ما نعقله، بصياغة منطقية، من علاقات لا الأشياء ذاتها، وثانيها أن موضوع هذا التصور يتصف

يكشف التفكيك تداخل الأضداد في بعضها وازدواجية الظواهر وعدم نقاوتها، وهو في نظرنا أفضل منهج لتحليل الثقافة العراقية والمجتمع العراقي.

ويتيح لها أن تتوازن وتتعلق مع بنى أخرى تحكمها أنظمة خاصة بها. ويمكننا أن نكتشف طبيعة هذه البنية بنتيجة التحليل الدقيق لموقع العناصر التي تشكل منها البنية، ولطبيعة العلاقات التي تقيمها حركة

هذه العناصر. وبقدر النشاط الفعال الذي تمارسه هذه العناصر بدخولها في علاقات بعضها مع بعض، بقدر ما تمتلئ البنية غنى وحيوية. وهذا ما أشار إليه بياجييه عندما قال: «تبدو البنية مجموعة تحويلات، تحتوي على قوانين كمجموعة (تقابل خصائص العناصر) تبقى أو تغتني بلعبة التحويلات نفسها، دون أن تتعدى حدودها أو تستعين بعناصر خارجية»^(٣).

٣. النظم الثقافية

العناصر وحدها لا تعني شيئاً، فهي موجودة في كل الثقافات المجتمعية، والبنى وحدها لا تعني شيئاً فهي الأخرى لا بد أن تتشكل، لكن الخطوة الحاسمة هي في تكوين النظام أو النظم الثقافية التي تعمل على بناء الثقافة الحقيقي ثم تأتي الخطوة الحاسمة عندما تؤدي هذه النظم وظيفتها. ويلزم النظام البنّي المؤتلفة فهو يشكل تحولاتها وقواعدها وقوانينها، وبذلك يحتوي النظام على العناصر والبنى في صيغة تقترحها طبيعتهما، ويحافظ النظام على هيكله وشكله بسبب فاعلية البنّي المكونة له وقدرتها على التماسك الداخلي والمرونة في

بأنه حقيقة لاشعورية لا تظهر بنفسها بل تدل عليها آثارها أو نتائجها. وثالثها: أن هذه الحقيقة اللاشعورية الباطنة (الكامنة في الموضوعات، أو الكامنة في عقولنا المدركة لها، بمعنى أدق) حقيقة آنية

تلفت الانتباه إلى تشكلها في الآن أكثر من تشكلها عبر الزمان، وتميل إلى الثبات أكثر مما تميل إلى الحركة. ورابعها: أن هذه الحقيقة الآنية تلفتنا إلى نفسها أكثر مما تلفتنا إلى فاعلها، وتكشف عن نظامها المحايث أكثر مما تكشف عن الذات الفاعلة في هذا النظام. وبقدر ما تؤدي هذه المسلمات، ضمناً، إلى نفي الصفة التاريخية عن معنى البنية فإنها تؤكد إزاحة الذات الفاعلة لا عن مركز البنية، على نحو يغدو معه بناء البنية (نظاماً آلياً) يعمل بطريقة لاواعية تتجاوز إرادة الأفراد^(٢).

البنى الثقافية علاقات معقدة التشكل فهي تربط بين الوجدان الذاتي لمنتجها والعالم الموضوعي حولها، وتتغير حسب الظروف الجديدة، ولا يمكنها أن تبقى سائبة بل تدخل في نسق ثم نظام يكفل لها البقاء النسبي والفاعلية الوظيفية. وهي متماسكة وتمتاز بـ«الكلية، التحولات، الضبط الذاتي».

البنية هي علاقات العناصر الداخلية في إطارها، ودخولها في نظام هو الذي يحفظ لها استقرارها، ويضمن لها حركتها وتفاعلاتها داخل النظام ذاته،

التحولات التي تجري فيها لأسباب داخلية أو خارجية. فالنظام، إذن، يتشكل من العلاقات القائمة بين عناصر البنية، دون أن يعني ذلك تغير هذا النظام بتغير العناصر المتعلاقة داخلها. فالمعروف مثلاً، أنه إذا حدث تغيير ما في أي عنصر من عناصر البنية، فإن مثل هذا التغيير سوف يشمل عناصر البنية كلها (إذا لم تقم البنية بإعادة بناء ذاتها مرة ثانية بشكل صحيح) بسبب أن أياً من هذه العناصر لا يتمثل داخل البنية على هيئة ساكنة، وإنما يمارس فيها فاعلية قوية بالعلاقة التي ينشئها مع غيره من العناصر الأخرى الداخلة معه في تركيب البنية، بما يحافظ على البنية ذاتها، وبما يجعلها تثرى بهذه العلاقات. وحتى في حالة توالد بنيات جديدة

من بنية رئيسية، فإن عناصر البنية الجديدة لا تشكل خرقاً لقوانين البنية الأساسية، بقدر ما تشكل إضافات جديدة تنتمي إلى عناصر البنية ذاتها وتدخل في علاقاتها وتخضع

لقوانين تشاكل قوانينها. وفي هذا الإطار يشير سوسير إلى أن التبدلات التي يمكن أن تطرأ على البنية لا تؤثر على نظامها بل تؤثر على بعض عناصرها التي سرعان ما تندرج في إطار نظامها الخاص^(٤).

النظام علاقات البنى وقواعدها الداخلية المحكمة، وتحليل البنية لا يتم بشكل موضوعي إلا من خلال النظام، ومن النظام يمكننا التفكيك أيضاً فقد تشكلت البنية في نظام لغوي له معنى وله مجموعة من التقابلات

والعمليات والإشارات والقواعد التي تحكم اللغة، وهكذا يمضي الأفراد ويبقى نظامهم اللغوي القابل للتفكيك من خلال الكشف عن مركز النظام الذي هو عبارة عن مقولتين متضادتين أو مجموعة من الأزواج من المقولات المتعارضة مثل (الشكل والمضمون، الواقع والخيال، الله والإنسان، الماضي والحاضر، السلطة والمعارضة، الاتباع والإبداع، الأصالة والحدثة... الخ) هناك نقطتان رئيستان لفكرة التفكيك. الأولى هي أننا ما نزال ننظر إلى أنظمة أو بنى، بدلاً من ممارسات عينية فردية، وأن جميع الأنظمة أو البنى لها مركز، نقطة الأصل، الشيء الذي خلق النظام في المقام الأول. والثانية هي: أن جميع الأنظمة أو البنى مكونة من أزواج أو متعارضات ثنائية، من

تعبيرين موضوعين ضمن نوع من العلاقة بينهما. يقول دريدا إن هذه الأنظمة مبنية دائماً من الوحدات الأساسية التي

تحللها البنيوية الزوج أو التعارض الثنائي وأن في داخل هذه الأنظمة يكون أحد جزئي هذا التكوين الثنائي أكثر أهمية من الآخر، أي أن أحد التعبيرين «يشار» إليه بالإيجابي والآخر بالسلب، ومن ثم فإن في الثنائي (خير / شر) الخير هو ما تقيمه الفلسفة الغربية، والشر تابع للخير، ويجادل دريدا بأن جميع الثنائيات تعمل بهذه الطريقة (النور / الظلام)، (المذكر / المؤنث)، (اليمين / اليسار)، وفي الثقافة الغربية يقيم التعبير

المجتمع العراقي مزدوج من الريفي والحضري، وكلما عصفت به الأزمات لجأ إلى الحل الريفي عازفاً عن الحل الحضري.

الأول فوق الثاني^(٥).

وهكذا يكشف التفكيك تداخل الأضداد في بعضها وازدواجية الظواهر وعدم نقاوتها، وهو في نظرنا أفضل منهج لتحليل الثقافة العراقية والمجتمع العراقي لما انطوت عليه مظاهره من ازدواج واضح ولكنه متداخل، في الوقت نفسه، فعلى سبيل المثال تلعب مزدوجة التحضر والبدوة دوراً رئيسياً في تحليل شخصية الفرد العراقي لا من حيث انقسام المجتمع العراقي إلى مجموعتين متقابلتين بل إلى سلوك مزدوج في شخصية الفرد العراقي بسبب عدم نقاوة أي منهما وتداخلهما الكبير بحيث لا يعودان متعارضين بل متعايشين متطامين. ومثل هذا ما ينطبق على الثقافة العراقية التي

تعيش مزدوجة (القدامة والحدثة) على صعيد السلوك والكتابة فليس هناك مثقف عراقي إلا ويكون قد حمل المتضادين معاً بنسبة أو بأخرى، ليس اختياراً بل لأنه يعيش في بيئة تجبره

على الازدواج وستفصل في هذا لاحقاً. ما يفعله دريدا هو أنه ينظر كيف يعمل التعارض الثنائي الوحدة الأساسية للبنى أو الأنظمة التي كنا نببحثها، والأنظمة الفلسفية التي يرجع إليها ضمن نظام ما. إنه يبين أن التعارض الثنائي جبري (أ = ب، أ لا تساوي ب)، وأن التعبيرين لا يمكن أن يوجد من دون الرجوع إلى بعضهما بعضاً النور (كوجود) يعرف بعدم الظلام، الطيب عدم الشر،

إلخ. وهو لا يسعى إلى أن يعكس التراتبيات المتضمنة في الأزواج الثنائية أن يجعل الشر مفضلاً على الخير، اللاوعي على الوعي، المؤنث على المذكر. بل بدلاً من ذلك تريد التفكيكية أن تمحو الحدود (إشارة الخط المائل) بين التعارضات، لتبين من ثم أن القيم والنظام المتضمن في التعارض ليست صلبة. هذا هو المنهج الأساسي للتفكيك: أن تجد تعارضاً ثنائياً، وتبين كيف يكون كل تعبير جزءاً منه، بدلاً من أن يكون نقيضاً قطعياً من تعبير زوجي. ثم ينهار / البناء أو التعارض الذي فصل ما بينهما، كما نرى في تعبير الطبيعة والثقافة في مقال دريدا. وفي النهاية، لا تستطيع أن تميز بينهما. وتدعى فكرة هذا المنهج بـ «التفكيكية» لأنها جمع بين (البناء /

التفكيك)؛ الفكرة هي أنك لا تنشئ على وجه التحديد نظاماً جديداً من الثنائيات، بوضع التعبير التابع سابقاً في القمة، ولا تدمر النظام القديم بل بدلاً من ذلك، تفكك النظام القديم عن

طريق تبيان كيف تناقض الوحدات الأساسية للبناء (الأزواج الثنائية وقواعد جمعها) منطقها الخاص^(٦).

٤. الوظائف الثقافية

الوظيفة هي فاعلية البنية والنظام، ولا معنى لوجود العناصر والبنى والأنظمة دون حراك وظيفي يعمل على تغيير المجتمع ودفعه في حركة جدلية متصاعدة. البنية، كما أشرنا، نظام تحولات، والتحويلات

كانت الأحزاب الليبرالية والديمقراطية والمتحضرة قليلة العدد وضعيفة التأثير وقد نشأ أغلبها في العهد الملكي.

١. يتكون المجتمع من وحدات مترابطة ومتفاعلة ومتبادلة التأثير.
٢. يمكن تحليل الوحدات إلى عناصر بنيوية وظيفية.
٣. وظائف الجماعة أو المؤسسة تهدف إلى إشباع حاجات أساسية أو ثانوية مادية أو روحية نافعة أو مضرّة.
٤. يوجد نظام معياري أو قيمي يسيّر البنى الوظيفية ويحكم حركتها.
٥. هناك تواصل إنساني بين قيادة وعامة المجتمع دائم الحركة بينهما. وهناك نظام سلطة بين القيادة والقاعدة. وهناك نظام المنزل الذي يشد الأعضاء الفاعلين النشطين للقيادة. وينطبق هذا النسق البنيوي الوظيفي على المجتمع ككل وعلى مكوناته الثقافية بالقدر نفسه.

المبحث الثاني:

مكونات الثقافة العراقية المتوارثة

قادنا الفحص المتأني للمكونات الثقافية العراقية بصورة عامة إلى وجود العناصر والبنى الثقافية، وإلى ضعف النظم الثقافية ووظائفها. فالمجتمعات المتطورة تحفل بأنظمة ووظائف ثقافية فاعلة ونشطة توازي نشاط وتطور ذلك المجتمع في أغلب قطاعاته الأخرى، والمجتمع العراقي يعاني أولاً من هشاشة مجتمعية حيث لم يبن المجتمع العراقي الحديث على أسس صحيحة بل ظلت العناصر والبنى القديمة والوسيلة تلعب فيه أهم الأدوار (كالعشيرة

علاقات لعناصر البنية، أي دخول عنصر في البنية مع عنصر آخر في علاقة متبادلة، أو دخول جملة مع جملة، أو نص مع نص. هذه العلاقة هي ما يمكن أن نطلق عليه تسمية «الوظيفة». فالوظيفة، إذن، هي التي تحدد، ليس طبيعة العلاقة بين مكونات البنية حسب، وإنما فاعلية هذه المكونات بالنظر إلى نشاطها الذي يمارسه كل عنصر منها داخل المجموعة التي ينتمي إليها. وليس هناك أية قيمة يمكن لأي عنصر أن يمتلكها بشكل منعزل، وإنما يكتسب مثل هذه القيمة بالعلاقة التي يشكلها مع عنصر آخر، أو مع عناصر أخرى. فيكون الكشف عن هذه العلاقات التي تتواصل من خلالها عناصر البنية هو كشف عن وظائف البنية ذاتها. إذن، فالتحليل الوظيفي يعمل على ربط النظام اللغوي بالوظائف التي يمكن لهذا النظام أن يؤديها من خلال التراكيب المختلفة التي تشكل بنية هذا النظام وأساسه. مع النظر إلى أن كل تركيب أو بناء لغوي يمكن أن يؤدي وظيفة مختلفة^(٧).

إن الوظيفة هي النتيجة النهائية للتكوين البنيوي للظاهرة وهي التي تسمح بالتفسير الصحيح لأية ظاهرة اجتماعية أو ثقافية وتكشف عن المعنى المستتر خلفها والوقائع المرتبطة بها. يرى تالكوت بارسونز في كتاب «النسق الاجتماعي» أنه لا يوجد بناء بدون وظيفة اجتماعية، ولا وظيفة بدون بناء اجتماعي، وهذا يعني تلازمهما الكامل. ويمكننا تلخيص المبادئ الأساسية للنظرية البنيوية الوظيفية التي وضعها على مراحل متتابعة كل من هربرت سبنسر وتالكوت بارسونز وروبرت ميرتون وهانز كيرث وسي رايت ملز:

والدين والطائفة والقومية العرقية)، وهو مجتمع يفتقر لبناء دولة ذات طابع عصري وحديث، وتغيب عنه صفة الاقتصاد الحيوي الفاعل والحياة المدنية الدستورية العميقة، ولذلك تأتي البنى متساوقة مع هذا الخراب المجتمعي والسياسي والاقتصادي.

وسندرك ذلك من خلال فحصنا لأهم مكونات الثقافة العراقية المتوارثة (في هذا المبحث) وانعكاسها على مكونات الثقافة العراقية المعاصرة (في المبحث القادم).

١. المكوّن الديني

تظهر عناصر المكوّن الديني وبنائه واضحة في المجتمع العراقي وهي نازحة من التاريخ الوسيط تشوبها المسحة الطائفية والسياسية الكامنة، في الغالب، والتي تأخذ تمظهرات مختلفة أحياناً، أما النظام الديني فيظهر موارباً متخفياً في المؤسسات الدينية المعلنة وفي شكلها السياسي الواضح والخفي.

المكوّن الديني في الثقافة العراقية التقليدية مكوّن أساسي لكنه لم يعد مكوّناً روحانياً نقياً فقد لعبت الظروف السياسية والتاريخية السابقة دوراً مهماً في ربطه بأحداثها فأصبح ذا بعد طائفي وسياسي، وينطبق هذا بصفة خاصة على الدين الإسلامي الذي يشكل الدين الأكبر للعراقيين وكذلك الدين المسيحي ويختفي في الديانات الصغيرة الأخرى كالمندائية والإيزيدية.

٢. المكوّن القومي

يرى تونيز ضرورة التفريق بين مصطلحين هما المجتمع الريفي (كوميونتي) والمجتمع الحضري

(سوسايטי)، فالمجتمع الريفي بسيط ومتخلف ومحلي ووارث للتقاليد تسيطر عليه الإرادة الطبيعية وتلعب روابط الدم والقرباة والروابط الموروثة الأخرى كالدين والقبيلة والعائلة الدور الأساس فيه، بينما المجتمع الحضري مركب ومتطور ومنفتح على العالم ومتفاعل مع التحديث الاجتماعي وتسيطر عليه الإرادة العقلانية وتلعب فيه الروابط الثقافية القائمة على أساس التعاقد الدور الأهم^(٨). المجتمع العراقي مزدوج من الريفي والحضري، وكلما عصفت به الأزمات لجأ إلى الحل الريفي عازفاً عن الحل الحضري، وهو ما يشير إلى هشاشة تكوينه الحضري الحديث. التكوين القومي الطائفي هو التكوين العربي من حيث العناصر والبنى ولم يكن للقوميات العراقية الأخرى (الكورد، التركمان، الناطقون بالسريانية وغيرهم) دور مهم في تكوين النظام والوظيفة الاجتماعية والثقافية. وهكذا جاء العطب واضحاً في قصور الوظيفة الاجتماعية الثقافية وتصدعها. ورغم عراقية تاريخ العراق وحضارته القديمة إلا أن الحضارة العباسية التي كانت محور الحضارة العربية الإسلامية هي الأكثر قرباً وتأثيراً في حياته من التي قبلها، ويتجلى هذا بحضور اللغة العربية والدين الإسلامي في كل تفاصيله، ولم يحاول المجتمع العراقي من جهته والمثقفون العراقيون من جهتهم ربط المجتمع العراقي الحديث بماضيه الرافديني الخصب، وظل هذا الماضي أقرب إلى الدعاية والشعارات منه إلى التفاعل العضوي.

أما الوطنية العراقية بالمعنى الاصطلاحي الدقيق

هذا النحو لم تكن تشدّ المجتمع العراقي إلى الحكم العثماني روابط متينة. فلا لغة مشتركة، ولا تاريخ مشترك، ولا مصلحة اقتصادية. واقتصرت الرابطة الوحيدة على الانتماء الديني المشترك، بوصف الدولة العثمانية حامية حمى الإسلام من خطر الكفار. ولكن ضعف الأواصر بين المجتمع العراقي والحكم العثماني، لم يكن كافياً وحده لبذر بذرة الوطنية العراقية. وتشير الدلائل إلى أن فكرة الانسلاخ عن الدولة العثمانية لم تكن مطروحة حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤^(٩).

٣. المكوّن السياسي

دمرت العراق، سياسياً، ثلاثة أصوليات راديكالية حزبية لعبت دوراً خطيراً في تفتيت نسيجه المجتمعي وفي منع بنائه العلمي الرصين وهي (الأممية، القومية، الدينية)، وقد لعبت الأحزاب الثورية المنضوية تحتها (الماركسية، البعث، أحزاب الإسلام السياسي) الدور الكبير في إقصاء الآخر وفي تفردها في أحقية قيادة المجتمع وفي بثّها بذور العنف والكرهية. ولكن الاتجاه القومي ممثلاً بحزب البعث كان الأشدّ عنفاً وضراوة في ذلك لأنه نفذ أفكاره الراديكالية عن طريق السلطة التي بقي فيها لأكثر من ٣٥ سنة.

التيار القومي تأثر بالقومية الأوروبية وخاصة (النازية والفاشية) وخُيّل إلى رموزه أن بالمستطاع بلوغ شأوه في الوحدة القومية، وفاتهم أن المجتمع العراقي لم يكن قد خطا بعد إلا خطوات في طريق الوطنية على المستوى الإقليمي، تكبحه العلاقات والذهنية

فلم تنشأ إلا بعد ثورة العشرين، وكانت علاقة العراق بولاياته الثلاث، مع العثمانيين قوية من ناحية التبعية الدينية وضعيفة قومياً، وهكذا تكون القومية العراقية بمعنى (الأمة العراقية) فكرة حديثة التكوين بدأت بوادرها بعد ثورة العشرين ولكنها سرعان ما تعرضت منذ الأربعينات لفكرة القومية العربية التي بدأت بتصديعها شيئاً فشيئاً حتى التهمت كلياً بحلول نظام البعث طيلة ثلاثة عقود ونصف.

كانت الوطنية العراقية، أثناء الحكم العثماني وحتى بدايات القرن العشرين، مفهوماً هلامياً، من دون معالم واضحة. فقد كان العراق موزعاً إلى ثلاث ولايات (بغداد، الموصل، البصرة). واتصف الحكم العثماني، على الرغم مما كان يبدو عليه من مركزية مفرطة، بالتسيب كلما بعدت الوحدات الإدارية عن المركز. وكانت قبضة الدولة العثمانية تضعف تدريجياً، حتى تكاد تتلاشى في الأطراف القبلية التي لا تشدّها إلى المركز إلا خيوط واهية: ولاء شكلي، تحكمه بين الحين والآخر حملات تأديبية لجباية الضرائب. ولم توفّق السلطة المركزية في إدارة الاتحادات العشائرية إلا من خلال استعداد بعضها على بعض، موظفة في ذلك التراث البدوي الذي يحكم سلوك تلك القبائل. وعلى

**القومية العراقية بمعنى (الأمة العراقية)
فكرة حديثة التكوين بدأت بوادرها بعد ثورة
العشرين.**

العشائرية. وتبنى التيار القومي النزعة الانقلابية، قولاً وعملاً، برنامجاً له، وظل متمسكاً بها حتى النهاية. وعانى هذا التيار تناقضاً حاداً بين أهدافه الوحدوية المعلنة. وذهنيته وسلوكه السلطوي من جانب آخر. حيث شهد اختزالاً مستمراً، إلى نزعة إقليمية، ومن ثم مناطقية وعشائرية وأسرية، نزولاً إلى أصغر وحدة في المجتمع، العائلة (سليم الوردي ٢٠٠٥. <http://iraker.dk/v/4.htm>).

أما الأحزاب الدينية فتستند إلى قاعدة قوية من ممارسة العنف وتشريعه بالرجوع إلى النصوص المقدسة، وقد ظهر الإسلام السياسي في العراق بشقيه السني والشيوعي في فترة متأخرة، ولكن أحزابه كانت مهياة للقفز إلى السلطة مع سقوط نظام البعث القومي، فضلاً عن ظهور القاعدة كطرف حاسم في الإسلام السني الراديكالي المتطرف.

نشط الإسلام السياسي خلال العقود اللاحقة حين كان التيار الليبرالي يلفظ أنفاسه الأخيرة، في كنف التشكيلات النخبوية السلطوية المستبدة. وما كان بمقدوره أن يصمد أمام شراستها إلا بتنظيمات ثورية قوية وبرامج راديكالية ذات أهداف انقلابية. وكانت القاعدة الجماهيرية للإسلام السياسي تتوسع كلما أخفقت السلطة المستبدة في معالجة مشاكل وتآزمات المجتمع. هياً إخفاق برامج التيارين القومي والشيوعي تربة خصبة لتقبل أوساط واسعة من المجتمع العراقي أطروحات الإسلام السياسي. فقد تربّع التيار القومي على دست الحكم أربعة عقود، لم يُقدّم خلالها حلاً

لمشاكل المجتمع، بل عمّق من انقساماته. أما التيار الشيوعي الذي مثل أعرق تيار سياسي في البلد، وحظي بقاعدة جماهيرية واسعة، فلم يتمكن من تعبئة الجماهير وقيادتها لإحداث تحولات مؤثرة في الحياة السياسية للمجتمع العراقي. وقد أضعف انهيار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية في أوربا الشرقية المصدقية الفكرية للتيار الشيوعي، نظراً لارتباطه التاريخي بتلك التجربة، ومثلت إنجازاتها العظمى مصدر إلهام له^(١٠).

كانت الأحزاب الليبرالية والديمقراطية والمتحضرة قليلة العدد وضعيفة التأثير وقد نشأ أغلبها في العهد الملكي الذي لم يستطع مقاومة العنف الثوري الذي كان يزحف نحوه بتأثير المد (الثوري) المنظم الذي أشاعته النزعات الاشتراكية والقومية آنذاك.

أما الاتجاه الليبرالي فقد أثبت خيئته، على الرغم من تبني النظام الملكي المنهج الليبرالي في الحكم. إذ سعى مؤسس الدولة العراقية، الملك فيصل الأول إلى بناء دولة متحضرة على أسس دستورية ليبرالية. ولكن أنى له ذلك وهو لم يتوفر على قاعدة اجتماعية واقتصادية ترفد الليبرالية بمقومات وجودها وتطورها. لقد اقترن نشوء الليبرالية على الصعيدين الاقتصادي والسياسي بالتحول العاصف في المجتمعات الأوربية إلى علاقات الإنتاج الرأسمالية، على أثر الانقلاب الصناعي. فكيف يقيض لها أن تشق طريقها في مجتمع تسوده العلاقات والذهنية العشائرية! وإذا كان للاتجاهات الراديكالية «الاشتراكية والقومية» رصيد تاريخي في الحركات الثورية إبان الحكم الإسلامي، فإن الاتجاه الليبرالي لا

سوابق له، حتى من حيث المظهر، في تاريخ العراق منذ القدم. إذ سيطر على حضاراته ما يطلق عليه المؤرخون «الاستبداد الشرقي»^(١١).

لقد نتج عن كل هذا الصدام الدموي المريع بين الأحزاب الأصولية فضلاً عن ما خربته الحروب الكثيرة في البناء الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والنفسي، نتج عن ذلك تحطم البنى الثقافية ووظائفها تحطيماً شبه كامل. أما المجتمع العراقي فقد تمزق نسيجه ومارس أبشع أشكال التخريب لوطنه من قتل وتعذيب وسرقة وشتائم وإذلال وتصنع البطولات الزائفة والنفاق والكذب والمبالغة وعدم دقة الأحكام.

٤. المكوّن الشعبي

ظهرت، إلى جانب الطائفة الدينية، العشيرة ومعها نظام العادات والتقاليد والموروث الشعبي (الفولكلور) الذي كانت الحياة الشعبية تمده بالحياة والبقاء، وتحكمت العشيرة بالأفراد والجماعات وصارت هي واجهة ما أسميناه بالمجتمع الريفي-البدوي الذي كان أكثر صموداً من المجتمع المتحضر في فترات الأزمات، بشكل خاص، رغم كونه ظل سارياً بقوة حتى في أكثر أيام التحضر علانية.

وإذا عدنا إلى الريف نجد أن البنية العشائرية كانت تتحدد أساساً بالدور العسكري للعشيرة، وتحكمت هذه الحقيقة إلى حد كبير بالهرمية العشائرية القائمة، حيث كان موقع أهل الإبل الرحل المحاربين في السهول العربية أعلى من موقع أهل الغنم أو الأهوار أو أهل الزراعة. وكانت مجموعات المنزل المسيطرة، التي يأتي

أفرادها من المجموعة الأولى، تشمل شيوخ المشايخ (رؤساء الأحلاف العشائرية) والمشايخ (زعماء العشائر المحاربة المؤلفة لهذه الأحلاف). أما الموازي لهؤلاء منزلة في كردستان الجبلية فكان البكوات أو الأغوات العشائريين، والذين كانوا يؤخذون من الرّحل الجبلين ويوكلون بالسيادة على الفلاحين غير العشائريين. وكان موقع هذه الشرائح القائمة يعتمد أساساً على التفوق في القوة أو على البراعة العسكرية، وعلى الأصل أو النسب، ثم، ومن وجهة نظر أفراد العشيرة ولكن ليس بالضرورة من وجهة نظر العشائر التابعة لهم، على تقاليد عشائرية عريقة في القدم^(١٢).

وتتضمن العناصر الشعبية كل البيئة الثقافية الشعبية التي يولد ويتعرّع الإنسان فيها وتبقى فاعلة في وجدانه العميق ولا شعوره الجمعي من أغاني وملابس ورموز وأشكال وأمثال وطرائق عادات وسلوك وعيش وغيرها. وتحمل هذه العناصر بناها المعروفة المرتبطة بالأشخاص والزمان والمكان، لكن هذه البيئة الشعبية لا تتنظم في نظام ووظيفة إلا مع أهلها الذين يبقون في رحمها، أما الذين يغادرونها نحو التحضر والتمدن فتتسظى لديهم مثل كسر صغيرة يرممون بها، أحياناً، بعض حياتهم.

يقودنا هذا إلى أن المرجعية القبلية أقوى من الثقافة الشعبية، فالعشيرة تلتصق بالفرد حتى النهاية في حين أن الثقافة الشعبية تفقد نظامها ووظيفتها وتبقى في حياة الفرد مثل عناصر وبنى. إن التنوع الهائل في الثقافة العراقية الموروثة ظل بعيداً عن التلاحق الخصب في

لبناء ثقافة متكاملة تعين الشعب أو الأمة على تلمّس الشخصية الثقافية، وهي تشير إلى ثراء عاطفي وجداني لكنها تفتقر إلى البناء العقلي والمعرفي الفلسفي. البنى الأدبية بين عناصر الأدب العراقي لم تكن متواشجة متجانسة، فقد تفوق الشعر فيما تراجعت الرواية وتذبذبت القصة والنصوص المسرحية بين قوة وضعف. وكان النقد الأدبي هو الحلقة الأضعف في الأدب العراقي ويعكس هذا تراجع الفكر الأدبي الذي هو، بشكل عام، يشير إلى تراجع الفكر في العراق الحديث عموماً.

٢. المكوّن الفني

حضر المكون الفني العراقي المعاصر بكل أطيافه وكان متميزاً في الفن التشكيلي والمسرح والغناء بشكل خاص، لكنه كان ضعيفاً في السينما والموسيقى والدراما التلفزيونية. وكان مناخه الغالب في المزج بين التراث الشعبي وهموم العصر والموضوعات الحديثة. بقي الفن العراقي أسير التبعية الأيديولوجية مرغماً ولم يتحرر من سجونها الموجهة، وكان هذا سبباً كافياً لجعله محدود الحركة والتأثير.

٣. المكوّن الفكري

كان المكوّن الفكري، وما زال، أضعف مكونات الثقافة العراقية، فقد اقتصر في أغلبه على الجهود الأكاديمية التقليدية وعلى التناول العابر والسطحي في المعالجات الخاصة بالفكر. وربما كان منجز الفكر التاريخي أفضل من غيره لكنه لا يتناسب مع ما يمكن أن يوجد به بلد عريق التاريخ كالعراق، ويمكن أن نشير إلى

ظلّ أدوات وطرائق ومناهج العصر الحديث المشوش في عراق القرن العشرين، فالطيف الثقافي العراقي الموروث الحيّ بأهله يشير إلى وجود ثقافة عربية كانت أساس الثقافة الإسلامية في بغداد والبصرة والكوفة، وهناك الثقافة الكوردية والتركمانية والمسيحية الآشورية والسريانية والكلدانية واليعقوبية وهناك الثقافة المندائية والإيزيدية والشبكية وثقافة عرب الأهوار، فضلاً عن ما تتمتع به ثقافة كل مدينة عراقية من خصوصية نادرة تراكت مع الزمن. لكننا نلمح عدم التفاعل بين هذه الثقافات لصالح نشوء ثقافة عراقية حية وفاعلة.

المبحث الثالث:

مكوّنات الثقافة العراقية الحديثة

١. المكوّن الأدبي

المكون الأدبي في الثقافة العربية المعاصرة هو الغالب والأكثر حضوراً، بل يمكننا القول إن الثقافة العراقية المعاصرة هي ثقافة أدبية بالدرجة الأولى، فقد استطاع الأدب العراقي الكلاسيكي في النصف الأول من القرن العشرين (في شقه الشعري بشكل خاص) أن يكوّن النهضة الأدبية العراقية، أما في النصف الثاني من القرن العشرين فقد استطاع الأدب العراقي الحديث (في شقه الشعري بشكل خاص أيضاً) أن يشكّل السمة الثقافية العامة رغم ظهور إنجازات أدبية أخرى في حقول الرواية والقصة والنقد الأدبي والنص المسرحي وغيرها.

والثقافة الأدبية الشعرية، على أهميتها، لكنها لا تكفي

العلامة طه باقر والدكتور جواد علي في التاريخ القديم، ونشير للدكتور عبد العزيز الدوري في التاريخ الوسيط، وللمؤرخ عباس العزاوي في التاريخ الحديث.

وفي علم الاجتماع يبقى الدكتور علي الوردي صاحب منزلة استثنائية خاصة في مجاله، أما في الفلسفة فيمكننا الإشارة إلى جهود الدكتور حسام الآلوسي بشكل خاص. وتبقى العلوم الإنسانية الأخرى كالسياسة والاقتصاد والأنثروبولوجيا والإعلام وغيرها حقولاً شبه مهملة في النتاج الثقافي العراقي وهو ما يؤشر خللاً كبيراً ونقصاً فادحاً في طيف هذه الثقافة. وقد قدّم بعض المثقفين العراقيين من غير الأكاديميين ما هو أفضل لهذه الحقول من المتخصصين الأكاديميين على مستوى المعلومات والمعالجة وليس على مستوى المنهج، وهذا يكشف الفقر الواضح للمؤسسة الأكاديمية في التفاعل الاجتماعي والثقافي واقتصادها على منح الشهادات التي ترتبط بالعمل وليس بصناعة ثقافة نوعية. هكذا تبدو لنا معالجة الثقافة العراقية في جوانبها التقليدية الموروثة (القديمة) خاضعة لمحركات

دينية وقومية وفولكلورية متصدعة غير قابلة للتعايش مع حاضر جديد منفتح على ثقافات العالم، أما التكوين الداخلي لها الذي يعتني بمكوناتها ونظمها ونسيجها الخاص فيشير لغياب النظام

والوظيفة وهو ما يحولها من ثقافة متطورة ذات هدف واضح وشكل متناسق إلى ثقافة مشظّة لا شكل لها ولا تعمل فيها الأنساق الداخلية بل تشوهها الفوضى ويدغم ملامحها التراكم. وكذلك غياب المنهج، وهو طريقة العمل وبوصلة الاتجاه والوسيلة العلمية لنموها المقصود، رغم ظرفها الملتبس والمتغير، فهي ثقافة اعتباطية تحكمها الأمزجة ولا منهج يسودها ولا تشتغل فيها تيارات متميزة عن بعضها.

يجعلنا هذا التشخيص أمام سؤال حقيقي هو: هل هناك ثقافة عراقية؟

فإذا أردنا الإجابة ذوقياً وقصدنا المعنى الاثني والوطني والجغرافي والطيف الروحي الخاص فسنجيب بنعم.

أما إذا أردنا الإجابة علمياً وقصدنا الوعي العميق بمفهوم صناعة ثقافة معاصرة فسنجيب بلا. وهو غاية بحثنا.

ينتهي البحث إذن إلى إجابة سلبية وتبقى الثقافة العراقية لعقود طويلة وربما لقرون قادمة دون نظام ووظيفة مجتمعية ودون منهج بسبب تكوّنها العفوي وإهمال الوعي العلمي الدقيق بها وغلبة الطابع الأدبي فيها وعدم نشاط الجانب الأكاديمي المبدع والخلاق في توجيه حركتها ونموها.

هل هناك ثقافة عراقية؟ فإذا أردنا الإجابة ذوقياً وقصدنا المعنى الاثني والوطني والجغرافي والطيف الروحي الخاص فسنجيب بنعم. أما إذا أردنا الإجابة علمياً وقصدنا الوعي العميق بمفهوم صناعة ثقافة معاصرة فسنجيب بلا.

الاستنتاجات والتوصيات

١. توفر العناصر والبنى الثقافية العراقية الموروثة أو المصنوعة، وعدم توفر الأنظمة والوظائف الثقافية الخاصة بها. وقد بينت الدراسة أن سبب ذلك هو عدم وجود نظام ووظائف اجتماعية قائمة على أسس حديثة متماسكة.
٢. كان لعدم وجود دولة مؤسساتية مبنية على الأسس العلمية والدستورية الأثر الكبير في تصدع أنظمة ووظائف الثقافة العراقية.
٣. غلبة الجانب الأدبي في الثقافة العراقية يعكس الجانب الوجداني الخصب من جهة ويؤشر غياب الجانب العقلي والعلمي من جهة أخرى، وهو مؤشر عدم نضج في الثقافة العراقية.
٤. تستجيب الثقافة العراقية في تحليلها للمنهج المعياري الذوقي لأنه يناسب تكوينها المعياري الذوقي، وتكون عصية على المنهج الوصفي العلمي بسبب ضعف تكوينها الوصفي العلمي الدقيق، وهذا يفسر عدم نضجها وتكاملها.

الهوامش

- * خزعل الماجدي شاعر وكاتب مسرحي وباحث في علم وتاريخ الأديان والحضارات القديمة. حصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ القديم ١٩٩٦. عمل أستاذا جامعيًا في جامعة درنة في ليبيا. وألقى محاضرات في جامعة ليون، وعمل في عدد من الجامعات المفتوحة في هولندا وأوروبا. يدرس تاريخ الحضارات والأديان القديمة. له مجموعة من الكتب في ثلاثة حقول؛ الشعر: ٣٠ مجموعة في خمس مجلدات من الأعمال الشعرية، المسرح: ٣٧ مسرحية في مجلدين من الأعمال المسرحية، الأعمال الفكرية: ٣٠ كتابًا في تاريخ الأديان والحضارات والميثولوجيا منها: تاريخ القدس القديم، الدين السومري، الميثولوجيا المندائية.
١. جابر، يوسف حامد (١٩٩٥): المفاهيم الأساسية للنبوية، مجلة الموقف الأدبي العدد ٢٩٤ تشرين الأول، اتحاد الكتاب العرب في دمشق، دمشق.
 ٢. كريزويل، إديث (١٩٩٣): عصر النبوية، ترجمة جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت.
 ٣. بياجي، جان (١٩٨٢): النبوية، ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبري، ط ٣، منشورات دار عويدات، بيروت - باريس.
 ٤. شتراوس، كلود ليفي (١٩٧٧): الأنثروبولوجيا النبوية، ترجمة د. مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق.
 ٥. كلايغز/ ماري (٢٠٠٦): دريدا تحولات النبوية وما بعد النبوية، ترجمة محمد ناصر صلاح، موقع جيلة: <http://www.jablah.org/modules/news/article.php?storyid=2735>.
 ٦. نفسه.
 ٧. سوسير، فرديناند (١٩٨٤): محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، دار النعمان للثقافة، جونية/ لبنان.
 ٨. غنيم، السيد رشاد وجماعته (د.ت): النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.
 ٩. الوردي، سليم (٢٠٠٩): مقترحات للمشروع السياسي العراقي (١٩٢١-٢٠٠٣)، مطبعة الزمان، بغداد. <http://iraker.dk/v/4..htm> (٢٦ تشرين الثاني ٢٠١٣).
 ١٠. نفسه.
 ١١. نفسه.
 ١٢. بطاطو، حنا (١٩٩٨): العراق الجزء الأول، ترجمة وتحقيق عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.

